البردة
علم المحبين ، وسهام الجاهلين

إعداد
أ . د / محمد عمر أبو ضيف القاضي

جامعة الأزهر الشريف

١٤٤٤هـ /٢٠٢٣م

البُرْدَة علم المحبين، وسهام الجاهلين

أ.د/ محمد عمر أبو ضيف القاضي

ملخص البحث: لا شك أن علوم الإسلام كلها تتكامل، ويخدم بعضها بعضاً، ويمسك بعضها في رقاب بعض، من علوم العقيدة، والأصول، والشريعة، واللغة، ...، وكلها تتساند في بيان الدين الإسلامي، وتوضيحه للناس؛ ليفهموه، ولا يكون لهم حجة عند الله– عز وجل– في عدم الفهم، وما يترتب عليه من عدم العمل...

وقام هذا البحث بتطبيق هذا التكامل من خلال شرح بعض أبيات قصيدة البردة للإمام البوصيري، التي استشكل فهمها على بعض الناس؛ مما أدى إلى مهاجمتها دونما فهم متعمق يقوم على أساس التكامل بين العلوم.

مما أدى إلى إطلاقهم للمصطلحات الغريبة والعجيبة عليها، وعلى صاحبها.

مما دعاني إلى شرحها بالقرآن، والحديث، والشريعة، وأقوال الفقهاء؛ لبيان التكامل بين علوم الشريعة واللغة العربية؛ لخدمة الدين الحنيف، والرد على التأويلات المنحرفة للشعر، واتخاذه أداة للتكفير، والتفسيق بغير علم بالعربية، ولا فهم لأساليبها.

وذلك عقب تعليق من أحد متابعي صفحتي الشخصية على أحد مواقع التواصل الاجتماعي (الفيسبوك) بنقل الاعتراضات على بعض أبياتها؛ فكتبت هذا البحث للأسباب سالفة الذكر.

وقد قمتُ عند الشروع في كتابة البحث بقراءة البحوث التي كُتبت في هذا الموضوع قراءة متأنية؛ فقمت بصياغة ما كتبوه، وعرضه بطريقة جديدة،

وعرْض بعض البحوث التي كُتبت في هذا الموضوع من باب نسبة الفضل لأهله.

كما عرضتُ للقصيدة، وشُرَّاحها، وعرضت الاعتراضات التي قامت على بعض أبياتها، والرد على هذه الاعتراضات.

وكان هدفي من وراء ذلك إلى جانب ما أسلفته؛ الحث على الموضوعية عند النظر في النصوص، وإحسان الظن عند النظر في كلام الناس عامتهم، وخاصتهم، وعدم المسارعة إلى التبديع والتفسيق.

الكلمات المفتاحية: البُردة – علم– المحبين– سهام– الجاهلين.

Abstract

Burdah is the knowledge of the lovers, and the arrows of the ignorant

Prof. Dr. Muhammad Omar Abu Dhaif Al-Qadi

There is no doubt that all the sciences of Islam are complementary, serve each other, and hold each other close to each other, such as the sciences of belief, principles, Sharia law, language..., all of which support each other in explaining the Islamic religion and clarifying it to the people. To understand it, and not have an excuse before God - the Almighty - for lack of understanding, and for the resulting lack of action...

This research applied this integration by explaining some verses of the poem Burdah by Imam Al-Busiri, which some people found difficult to understand. Which led to attacking it without an in-depth understanding based on integration between sciences.

Which led to them using strange and strange terms towards her and her owner.

Which prompted me to explain it with the Qur'an, Hadith, Sharia, and the sayings of jurists. To demonstrate the integration between Sharia sciences and the Arabic language; To serve the true religion, and to respond to deviant interpretations of poetry, and to use it as a tool for atonement and immorality without knowledge of Arabic, or

understanding of its methods.

This was following a comment from one of the followers of my personal page on a social networking site (Facebook) conveying objections to some of its verses. I wrote this research for the reasons mentioned above.

When I started writing the research, I carefully read the research that was written on this topic. So I formulated what they wrote and presented it in a new way.

Some of the research that was written on this topic was presented in terms of attributing credit to its people.

I also presented the poem and its explanations, presented the objections that were raised to some of its verses, and responded to these objections.

My goal behind this was in addition to what I mentioned above; Encouraging objectivity when considering texts, having good faith when considering the words of people, both in general and in particular, and not rushing to creativity and corruption.

Keywords: purdah – knowledge – lovers – arrows – ignorant people.

البردة

علم المحبين، وسهام الجاهلين

مقدمة

الحمد لله، وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وأزكى صلاة الله وسلامه على نبينا المصطفى.

وبعد

بمصطلحات التعليم الحديثة نقول صار يلاحظ في مخرجات التعليم الأزهري – إلا قليلا– في العلوم الشرعية أو العربية أن خريجيه يغلب عليهم أحادية التفكير، حتى الأقسام المقسمة تجد من يدرس الأصول إن درس عقيدة لا يعرف التفسير ومن درس تفسير لا يجيد الحديث، فمن درس العقيدة لا يعرف شيئا في الفقه غالبا، ومن درس الفقه ندر أن يحيط بأصول علوم الحديث، ومن درس الحديث لا علاقة له بتفسير القرآن وعلومه على الغالب الأعم، ناهيك عن أن يكون ذا دربة وخبرة باللغة العربية وعلومها المتعددة، ومن درس تخصص العربية لا يعرف شيئا عن الفقه أو التفسير أو الحديث أو العقيدة وذلك فضلا عن عدم اطلاع أبناء التعليم الشرعي أو العربي على العلوم الإنسانية والاجتماعية، بل وجدنا أن كثيرا من طلاب العلم إن اجتهدوا في معرفة المسائل القديمة في العلوم الإسلامية، فلا يستطيعون ولوج المسائل المعاصرة في العلم الذي تخصصوا فيه.

مع أن علوم الإسلام كلها تتكامل، ويخدم بعضها بعضا ، ويمسك بعضها في رقاب بعض، من علوم العقيدة والأصول والشريعة والفقه واللغة... إلخ، كلها علوم تتساند؛ لتبين دين الإسلام ،وتوضحه للناس، وتشرحه؛ ليفهمه الناس، ولا يكون لهم حجة عند الله في عدم الفهم ، وما يترتب عليه من عدم العمل ...

وقد قمت في هذا البحث الصغير بتطبيق ذلك ،حيث شرحت بعض أبيات قصيدة الإمام البوصيري ،المشكلة علي بعض الناس ،والتي استغلق فهمها

عليهم؛ فهاجموها ،وأطلقوا مصطلحات غريبة عجيبة عليها ،وعلي صاحبها، فشرحتها بالقران والحديث والشريعة وأقوال الفقهاء؛ لنصل إلي ما أريد أن أقوله من تكامل علوم الشريعة واللغة ؛ لخدمة هذا الدين، ولإفهام الإنسان؛ ليحسن عمارة الأكوان علي وفق مع شرعه الرحمان...

لم كتبت هذا البحث؟

فالهجوم على الشعراء الذين مدحوا النبي صلى الله عليه وسلم ظهر منذ عقود، مع ظهور تيارات تتمسح بالدين، وتدعي حمايته والحفاظ عليه، –وقد أخطئوا– وسنعرف من خلال هذه الورقات حجم الخطأ، أثناء الحديث عن بردة البوصيري، وصاحبها، الذين نالوا من تطاول المتنطعين، وهجوم الجاهلين نصيباً كبيراً.

والموضوع مهم وخصوصاً في هذه الأيام، مع انتشار التيارات والجماعات منذ عدة عقود، وهجومهم الشرس على المنهج الأزهري، وتسفيه معتقد الأزهرية، وإخراجهم – بتهور وجراءة غريبة – من دائرة الإسلام، والطعن في عقيدتهم، بدعوى أنهم قبوريون، وأنهم يعبدون الأضرحة، ويتوسلون بالأموات، ويقصدون النبي– صلى الله عليه وسلم– والصالحين ويستعينون بهم،... إلخ، وقد خابوا وخسروا، وهناك ردود وافية كافية شافية ردها متخصصون مطولة على هذه القضايا، وليست هي المقصودة بهذه الورقات.

ولكن المقصود بهذه الورقات هو موقف بعض الأزهرية، وفيهم أساتذة يحملون أعلى الشهادات من الأزهر ولكن – وللأسف– يجهلون أنفسهم، ومنهجهم، وما ينبغي أن يكون عليه من فهم، ودراسة، وقراءة النصوص العربية والشرعية كما درسه علماء الأزهر، منذ نشأته إلى يوم الناس هذا، بعيداً عن شذوذات الجماعات الإرهابية، ومغالاة، وتشددات التيارات المتطرفة، وضلالات وتفريط العلمانيين، وانحلال وفجور التنويرين .

وقد دفعني للكتابة في هذا الموضوع أني كتبت مشاركة أثني فيها على قصيدة البردة للبوصيري؛ فانبرى أحد متابعي صفحتي الشخصية، وكتبت بل نقل اعتراضات كثيرة على بعض أبياتها، وختم "فلنحذر من قراءة هذه القصيدة وأمثالها المخالِفة للقرآن، وهدي الرسول– عليه الصلاة والسلام–، .... فيضمون إلى هذه الضلالات بدعة أخرى ..." وانظر لقوله: ضلالات وبدعة في كلام عجيب لا أحب ان أسميه باسمه الحقيقي وهي ضحالة عقلية، وحماقة، وبلاهة، وأعمال ببغاوات تردد ما تلقن، وتكرر ما تسمع، وكل ما راجع به قد وجدته قد قاله، وردده شيوخ كبار من شيوخ هذه التيارات، يتلقاه واحد عن واحد دون روية، ولا فهم، ولا قراءة متأنية، وليس عندهم دليل من لغة، ولا من شرع إلا ما كان من فهمهم المنكوس، وتأويلهم المعكوس، وشرحهم المغلوط.

ولما شرعت في كتابة هذه الورقات؛ للرد على هؤلاء المعترضين الجاهلين، وشرعت في القراءة؛ رأيت بحوثاً كتبت في هذا الموضوع، وأقلاماً سبقتني في الرد على هؤلاء؛ فقرأتها وما كان لي من عمل إلا صياغة ما كتبوه، وتوليف ما قالوه بطريقتي، وهذا من باب نسبة الفضل لأهله، وذكر الشيء لأصحابه، ووجدت بحوثاً مهمة منها: للأستاذ/ عبد العزيز الكحيل بعنوان: حتى "البردة" لمْ تنجُ منهم، على موقع معهد الهقار للنشر، وكذلك بحث للأستاذ/ عبدالله أبن الشيخ أبي بكر بن سالم الشافعي، بعنوان: فك العقدة عن إشكالات قصيدة البردة، وبحث للأستاذ/ عيسى بن عبد الله بن مانع الحميري، بعنوان: الرد على ابن عثيمين حول بعض أبيات البردة .

كما وجدت مقالاتً متناثرةً على شبكة المعلومات الدولية ؛ فقرأتها وكانت هذه الورقات .

ونحن هنا لا نهاجم تيارا بعينة، ولا ندافع عن غلاة الصوفية؛ فإن فيهم ما لا نرضي أفعاله، ولا أقواله، وليس معني هذا أن الصوفية خطأ، ولا ضلال، فهي منهج تربوي سلوكي لتهذيب النفس والرقي بالروح، وقد يخطئ كثير ممن

يتمسحون بها ، ويدعون الانتساب إليها ،ويفعلون ما يخالف الدين، وهذا نعلن رفضنا له، ولا نقبله، ونرشد أصحابه للصواب، ونقوّم سلوكهم، ونحسبه عليهم، وليس علي الصوفية، كما يخطئ بعض المسلمين في تطبيق قواعد الإسلام، ويفعلون ما يناقضه، وليس العيب في الإسلام، بل العيب فيهم وفي تطبيقهم ...

وما نريده هو الموضوعية في النظر في النصوص، وإحسان الظن عند النظر في كلام عامة الناس من المسلمين، وخاصتهم كالشعراء، وعدم المسارعة إلي التبديع والتفسيق، والبعد تماما عن التكفير فهذا لا يجوز بحال، وليس لأفراد الناس ولا لغوغائهم بل هو للقضاة، بعد استيفاء كل الأسباب، وانتفاء كل الموانع، والجلوس مع المتهم من العلماء الأثبات، وتبيين وجه الصواب له، وإزالة ما عنده من لبس وشبهات ... إلخ الشروط التي وضعها سادتنا الفقهاء في كتبهم ، ثم يكون في النهاية الحكم للقاضي.

وليس كما نري من النابتة السفهاء الحمقى من تكفير المرءِ لقول قد يوجد له ألف توجيه، وحمل علي معني حسن، ومضمون بعيد عن الكفر.

هجوم ممنهج:

والهجوم على الإمام البوصيري، وغيره من شعراء المديح النبوي هجوم ممنهج، ومخطط، وقد ظهر من فترة تزامنت مع احتلال بلاد المسلمين من الغرب، وظهور تيارات، وجماعات تنتسب للدين الإسلامي، وتزعم العمل له، ولم تصنع سوى تمزيق جسد الأمة، وتفريقها، وإشعال الحروب بين أبنائها بعد ما صاروا شيعاً مختلفة، وفرقاً متباينة، وصاروا يقاتلون بعضهم مستدلين بالكتاب، والسنة بفهمهم الصهيوني، وتأويلهم المنحرف المأخوذ من أسلافهم الخوارج من كل زمان، وكان من هذا البلاء مهاجمة العلماء، والشعراء الذين يمدحون النبي – صلى الله عليه وسلم–، ويتفنون في الثناء عليه، ويستعملون مواهبهم في وصف خصائصه، وشمائله.. وهذه الاتهامات خطيرة على

المجتمع؛ لأنها تفكك أواصره، وتفرق شمله بدعوى الحفاظ على العقيدة، ونصرة الدين وهو للأسف كذب، وحيلة دنيئة؛ لهدم الدين ممن يخططون لذلك من وراء الأكمة، أو حمق، وغفلة، وسفاهة لمن يحسن النية، ويسير معهم، ويساعدهم وهو لا يدري ويردد ما يقولونه له.

واتهام البوصيري وهو "الإمام العلامة الهمام، العارف بالله، الصادق في محبة سيدنا رسول الله" [(١)] بالشرك مع أنه جراءة، بل تهور واستهانة بدين هذا المجترئ، قبل أن ينال من البوصيري، بل ينال من نفسه ودينه أولاً، إلا أنه فيه اتهام لكثير من أكابر العلماء، والمحدثين، والفقهاء، الذين قاموا بشرح هذه القصيدة، وتلقوها بالإعجاب والانبهار، وكذلك لعشرات الشعراء الذين عارضوها محبة، وتبركاً، واستلهاماً لمعانيها الرائقة الفائقة، بل واتهام للأمة كلها، من حين ما كتب الإمام البوصيري هذه القصيدة المباركة إلى أيام أول جاهل تجرأ، وزعم في القصيدة ما زعم من شرك، وذلك أن الأمة تلقتها بالقبول والاستحسان، بل والحب الشديد، والغرام بأبياتها، وأولع بها الناس، وحفظوها، ورددوها ليل نهار؛ تقرباً لله بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في إجماع للأمة عجيب على قصيدة، وهذا الإجماع للأمة دليل على إخلاص هذه القصيدة، وبراءتها من أي شائبة غلو، ناهيك عن أي كذب أخر، وكذلك شهادة لقائلها؛ فقد شهدت الأمة المحمدية في جميع مشارق الأرض ومغاربها، بصلاح وتقوى الإمام الجليل البوصيري. وأمة محمد – صلى الله عليه وسلم– لا تجتمع على ضلالة شاء من شاء، وأبى من أبى. عن ابن عمر – رضي الله عنهما– أن الرسول– صلى الله عليه وسلم – قال" الله لا يجمع أمتي على ضلالة أو كما قال: أمة محمد– صلى الله عليه وسلم– لا تجتمع على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ

---

(١) هذا وصف الإمام العلامة محمد بن أحمد بنيس الفاسي في شرحه للهمزية ص٦

شذ الى النار [١].

وقال أبو محمد بن حزم : وقد روي أنه – صلى الله عليه وسلم– قال: (لا تجتمع أمتي على ضلالة)[٢]

وقد قال الدكتور زكي مبارك:" البوصيري بهذه البردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين، ولقصيدته أثر في تعليمهم الأدب، والتاريخ، والأخلاق، فعن البردة تلّقى الناس طوائف من الألفاظ، والتعابير غنيت بها لغة التخاطب، وعن البردة عرفوا أبوابًا من السيرة النبوية، وعن البردة تلّقوا أبلغ درس في كرم الشمائل والخِلال. وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخّاذ إلى مختلف الأقطار الإسلامية، وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب إلى الله والرسول [٣]".

وقد شرحها على مدار الزمان عشرات الائمة، والعلماء الفحول، ولم يخطر ببالهم أن يأتي زمان يُتهم فيه من يمدح رسول الله – صلى الله عليه وسلم– تقرباً إلى الله بالشرك والكفر، ولم يدر بخيالهم أن يأتي نابتة في أخر الزمان لا يفقهون لغتهم، ولا يعرفون دينهم؛ يتطاولون على مادحي رسول الله– صلى الله عليه وسلم– ومحبيه "وهل بعد أن مرّت ثمانية قرون كاملة؛ اكتشف أدعياء التدين المتسلفة أن البردة رجس من عمل الشيطان، وناظمُها رجل خطير على

---

(١) أخرج الترمذي في جامعه، رقم الحديث ٢١٦٧، وللحديث شواهد عند الحاكم (١/١١٥-١١٦) و عند ابن أبي عاصم في كتابه السنة (٨٥,٨٤,٨٣,٨٢,٨٠) وذكره ابن ماجة في سننه من حديث أنس رضي الله عنه (٣٩٥٠) وذكره السيوطي في الجامع الصغير(١٨١٨) وقال حديث حسن. وللحديث شاهد عند الامام أحمد في المسند (٥/١٤٥) وفي سنن الدارمي(١/٢٩) وعند أبي داود ٤/٤٥٢ وانظر كذلك مجمع الزوائد للهيثمي ١/١٧٧ باب في الاجماع.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام: ٤/١٣١

(٣) المدائح النبوية في الأدب العربي، د. .زكي مبارك ،ص:٢٠١٥، ط. دار الشعب ١٩٧١.

الإسلام، ولم يكتفوا بتوجيه سهام النقد للشعر والشاعر، بل أعملوا فيهما – كعادتهم – معاول الهدم واستعانوا بالأخضر واليابس؛ لإحراق ذلك التراث، وفَجَروا في الخصومة، وخانوا الأمانة العلمية، وهيّجوا أتباعهم، وخطبوا، وحاضروا، وكتبوا المقالات، وألّفوا الكتب؛ ليقولوا لجماهير المسلمين إنكم أجمعتم على الباطل منذ قرون، واتبعتم الضلال المبين، ولا سبيل للنجاة إلا بمحو البردة من الذاكرة، وتناول صاحبها بالتجريح والنبذ.

وهذا إن دل فإنما يدل على غرورهم، وشذوذهم؛ لأنهم يتهمون الأمة، وعلماءها المحققين، وفقهاءها المدققين بالوقوع الجماعي في خطأ عَقدي جسيم؛ بتبجيلهم لقصيدة صنمية كلها انحرافات وبدع، كما يتهمون الأمة وعلماءها، وفقهاءها بالتغافل عن طامة تهدد العقيدة طوال قرون لم يكتشفها إلا خَلَفٌ في أواخر القرن الرابع عشر الهجري، ولولا هؤلاء الخلف للقيت الأمة ربها متلبّسة بذنب عظيم؛ توارثت اقترافه من غير أن تلتفت إلى خطره!!! وإني ألمح خلف هجومهم الشرس على البردة، والبوصيري مرضاً نفسياً توارثته عامتهم عن خاصتهم هو الحسد، فقد كبُر عليهم أن تلتفّ الأمة عبر القرون حول القصيدة الشهيرة بينما يطوفون هم وحدهم حول أدبياتهم المتشنجة الهزيلة...

والعجيب أنهم يمرون على مائة وأربعة وستين بيتاً من عيون الشعر، فلا يلقون بالاً لجمالها، وروعتها، ومعانيها الخلابة، وما فيها من الحِكم الجميلة والمواعظ البليغة وهو الشيء الكثير، وقد أفاض فيها البوصيري في مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم–، وقال فيه ما تعلمه المسلمون من الكتاب، والسنة وما تجيش به نفوسهم من ألوان المحبة، والتبجيل، يتركون ذلك كله ويكبّون على تلك الأبيات – بجهلهم– والتي لا تتجاوز أصابع اليد، ويرونها فاسدة المعنى؛ فيضخمون الأمر؛ ويهوّلون المسألة؛ ويأتون في ذمّهم بالغرائب، ويخترعون الأعاجيب، ويشاغبون علي الناس بها.

والرد العملي عليهم ما صنعته ألسن المسلمين، التي ما فتئت تلهج بمديح البوصيري، وتحفظه، وتحتفي به؛ لأن تلك القصيدة تحفة فنية فريدة تتصاغر أمامها القصائد التي تمدح خير الخلق -عليه الصلاة والسلام-، وقد وقع إجماع من الأمة على حبّها وتوارثها (١)"

أسباب ودوافع:

وهؤلاء الذين صاروا تياراً كبيراً، وانطلي كلامهم على كثير من الناس؛ فغروهم، وخدعوهم، وساروا وراءهم واعتقدوا صحة كلامهم؛ نظراً لما يضعونه في هذا الكلام من أدلة من الكتاب والسنة، وقد لووا أعناقها، وغيروا تأويلها، وعكسوا تفسيرها، بل ربما صنعوا ما ذكره البخاري عن ابن عمر وما قاله عن الخوارج :" وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَرَاهُمْ شِرَارَ خَلْقِ اللَّهِ، وَقَالَ:إِنَّهُمُ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الكُفَّارِ، فَجَعَلُوهَا عَلَى المُؤْمِنِين (٢)"َ ، فهم ينزلون الآيات التي نزلت في الكفار المشركين علي المسلمين الموحدين، وجاءوا لها بوجوه من المعاني لم يقل بها عالم معتمد، ولا فقيه له قيمة، وهي وجهات نظر قاصرة لعلماء لم يدرسوا دراسة منهجية، ولم يتلقوا العلم عن أهله، بل ربما تلقوه من صحف مصحفة، وكتب مردودة، وزادوا الطين بلة، بقراءتهم الخاطئة، وفهمهم السقيم، واستيعابهم المريض، ومن خلال النظرة العجلى التي يدركها أي متابع، يعرف الأسباب في ذلك ، وأهمها:

- لا يعرفون ما معنى الأزهر، ولا يدرون ما هو المنهج الأزهري، ولا خصائصه ولا مكوناته، من أنه أشعري العقيدة، مذهبي الفقه، وصوفي السلوك، ولما جهلوا ذلك؛ انطلى عليهم كلام هؤلاء الوهابية، واعتقدوه وصاروا يرددونه في المؤسسة الأزهرية في أروقتها، ومعاهدها وكلياتها، وهذا ما جعل كثيراً من

---

(١) ينظر: مقال :حتى "البردة" لمْ تنجُ منهم ، عبد العزيز كحيل، بتاريخ :-12-2016 27، على موقع: معهد الهقار للنشر (بتصرف كبير).

(٢) ينظر: فتح الباري: ١٢ / ٢٨٢

طلبة الأزهر الشريف، يأخذون ذلك كمسَلمات ويرونه عقيدة أزهرية، وهي ليست كذلك، بل هي مخالفة تماماً للمنهج الأزهري، الذي أسسه علماء الأزهر، على مدار ما يزيد عن الألف عام، وهي مباينة لهذا المنهج تماماً.

وهذا البلاء جاء من:

– الجهل بالمنهج الأزهري، ومكوناته، وخصائصه، وقواعده، التي وضعها علماء الإسلام الوسطيون مما يزيد على الألف عام، واشتغلوا عليه تصفية، وغربلة، وتنقية يصفونه جيل من العلماء عن جيل، حتى استقام منهجًا سوياً كاملاً، يصور الإسلام صورة كاملة، طيبة، تجمع بين صلاح الدنيا، وفلاح الآخرة.

– حديثهم عن التصوف كمذهب عقدي، وليس كمنهج سلوكي، وطريق لتأديب النفس، والرقي بالروح، والسمو بالأخلاق، وتهذيب السلوك والتمسك بمعالي الأمور، وترك سفسافها، واختيار الأعلى، والأرقي، والأسمى من المعاملات والأخلاقيات،... وهذا خطأ كبير أدى إلى خطيئة في الفهم، ومحاربة الأزهر، والأزهرية؛ لأنهم صوفية، والصوفية عندهم، وفي تصورهم مذهب عقدي فاسد، ومن يسيرون عليه مبتدعون بل ومشركون، وكفرة، ويستحقون الحرب التي نراها في كثير من البلاد.

– جهلهم الواضح الفاضح بالعربية، وقواعدها، وسَعةِ التَّعبيرِ فيها، وكَثْرةِ المُفرَداتِ، وتَنَوُّعِ الدَّلالاتِ وغناها في أصول الكلمات الدوال على معانٍ متشعبة، قديمة وحديثة، ولا نستغرب إذن أن نجد باحثًا كرينان في دراسته للغات السامية، تأخذه الدهشة وهو ينقل عن الأستاذ دوهامر، أنه توصل إلى جمع أكثر من ٥٦٤٤ لفظًا لشئون الجَمل، رفيق الأعرابي في الصحراء، ومؤنسه في وحشته.

ليس من الغريب هذا؛ فإن دوهامر لم يقصر بحثه على أسماء الجمل، ومرادفاته، بل جمع كل ما يتعلق بشئونه، وهو الكائن الحي الذي لا يستغني

عنه العربي لحظة في حياته . وإذن تكون هذه الأسماء الكثيرة نعوتًا للجمل في أحواله المختلفة، وهذا من الاتساع في هذه اللغة العالية .

– عداوتهم التي ورثوها عن بعض علمائهم، الذين شذوا عن جماهير علماء المسلمين، ورفضوا المجاز، فلم يدرسوه، ولم يفهموه، وهو باب عظيم في العربية والقرآن، والسنة، وكلام العرب، والمجاز مشتق من جاز الشيء يجوزه إذا تعدَّاه، سمَّوا به اللفظ الذي نُقِلَ من معناه الأصلي، واستُعْمِلَ؛ ليدل على معنى غيره، مناسب له، وهو من أحسن الوسائل البيانية التي تهدي إليها الطبيعة؛ لإيضاح المعنى؛ إذ به يخرج المعنى متصفًا بصفة حسية، تكاد تعرضه على عيان السامع؛ لهذا شُغفت العرب باستعمال المجاز؛ لميلها إلى الاتساع في الكلام، وإلى الدلالة على كثرة معاني الألفاظ، ولما فيه من الدقة في التعبير؛ فيحصل للنفس به سرور وأريحيَّة، ولأمر ما كثر في كلامهم، حتى أتوا فيه بكل معنًى رائق، وزينوا به خطبهم وأشعارهم.

– لا يعرفون بل يجهلون التفرقة بين النظر في الشعر واتساع أخيلة الشعراء، وهيامهم في كل وادٍ، ووهمهم الذي يجعلهم يقولون ما لا يفعلون، والأدلة على التفريق بين الشعر، وغيره من العلوم، بل والكلام، كثيرة لمن يفهمون، وأعطي مثالاً واحداً يبين هذا الأمر، معلوم أن المسلم لو ارتكب ما يوجب الحد، واعترف بذا؛ أقام عليه أولو الأمر الحد، وخصوصاً إذا كانت الدولة تطبق الحدود، أما لو قال ذلك شعراً، واعترف به نظماً، فلا يعتد بذا، وهذا ما حدث بالفعل ،فقد ذكروا (١) أن الفرزدق قال:

هُما دَلَّتاني مِن ثَمانينَ قامَةً ... كَما اِنقَضَّ بازٍ أَقتَمُ الريشِ كاسِرُه
أُحاذِرُ بَوّابَينِ قَد وُكِّلا بِها ... وَأَسمَرَ مِن ساجٍ تَإِطُّ مَسامِرُه
فَلَمّا اِستَوَت رِجلايَ في الأَرضِ نادَتا... أَحَيٌّ يُرَجّى أَم قَتيلٍ نُحاذِرُه

(١) ينظر :خزانة الأدب، البغدادي :ج ٣٢٢/٦ ، والوافي بالوفيات، الصفدي: ج ٢٧ /٢٢٦

فَقُلتُ اِرفَعا الأَسبابَ لا يَشعُروا بِنا ... وَوَلَّيتُ في أَعجازِ لَيلٍ أُبادِرُه

فَأَصبَحتُ في القَومِ الجُلوسِ وَأَصبَحَت ... مُغَلَّقَةً دوني عَلَيها دَساكِرُه

قد عيّره الشاعر جرير بذلك في شعر طويل، منه:

تَدَلَّيتَ تَزني مِن ثَمانينَ قامَةً ... وَقَصَّرتَ عَن باعِ العُلى وَالمَكارِمِ

لَقَد وَلَدَت أُمُّ الفَرَزدَقِ فاجِراً ... وَجاءَت بِوَزوازٍ قَصيرِ القَوائِمِ

وَما كانَ جارٌ لِلفَرَزدَقِ مُسلِمٌ ... لِيَأمَنَ قِرداً لَيلُهُ غَيرُ نائِمِ

هُوَ الرِجسُ يا أَهلَ المَدينَةِ فَاِحذَروا ... مُداخِلَ رِجسٍ بِالخَبيثاتِ عالِمِ

لَقَد كانَ إِخراجُ الفَرَزدَقِ عَنكُمُ ... طَهوراً لِما بَينَ المُصَلّى وَواقِمِ

ولما كان الفرزدق في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المقر على نفسه، والمعترف بهذا الفحش، وهو يوجب الحد وكذلك علم بذاك الناس حتى عيره جرير، واجتمع أشراف المدينة إلى مروان بن الحكم، وكان والياً بها، فقالوا: ما يصلح أن يقال مثل هذا الشعر بين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وقد أوجب عليه الحد! فقال مروان: لست أحده، ولكنه أمره مروان بالخروج من المدينة وأجله ثلاثة أيام، ففي ذلك قال:

توعدني وأجلني ثلاثاً ... كما وعدت لمهلكها ثمود

وكذلك سيدنا عمر بن العزيز لما كان والي المدينة، وجاء الفرزدق بل ونما لعلمه مع هذا الاعتراف، أن الفرزدق حاول أن يغتصب امرأة كان عندها، لكن لم يفعل، فبعث إليه أن اخرج عن المدينة، ولئن أخذتك فيها، ما دام لي سلطان، لأعاقبنك، فنفاه سيدنا عمر عن المدينة، فذلك قول جرير حيث يقول:

نفاك الأغرُّ ابنُ عبدِ العزيز ... بحقكَ تُنْفَى عن المسجد

وقال أيضاً:

وكنتَ إذا نزلتَ بدارِ قوم ... رحلت بخزيةٍ وتركتَ عاراً

فلم يقم الأمراء، وأولياء الأمور الحد على الفرزدق مع أنه اعترف بشعره، وفصّل الذي فعله من الفاحشة تفصيلاً كأن السامع يراه، ويشاهده بعينيه،

والإقرار سيد الأدلة -كما هو معروف ومستقر-، فليس بعد الاعتراف بينة، ولا دليل فوقه، وما ذلك إلا لفهمهم الشعر، وتفريقهم بينه وبين غيره من العلوم والفنون، والكلام في الشعر غير الكلام في غيره من حيث الدلالة، واتساع المعاني، واختلاف الألفاظ، وتحميلها معاني جديدة ...

- وما يمكن أن نستشهد به كدليل على أن الشعر يقبل فيه ما لا يقبل في غيره؛ لأنه مبني على المبالغة في الوصف والتشبيه، وليس تقريراً لعقائد كما لا يخفى على مطلع، فها هي أمنا عائشة الصديقة - رضي الله عنها- كانت دائما تتمثل بأبيات حسان بن ثابت، وتقول عن النبي - صلى الله عليه وسلم- وله :

خلقتَ مبرّأً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

فهل لمتنطع أن يقول: كأنها فضلت مشيئته على مشيئة الحق- تعالى-، ومشيئة الحق أبلغ، وأحكم، وأرقى كما لا يخفى، ولم يلمها أحد على ذلك، وقد قالت ذلك بأعين الصحابة، وبأذانهم، وكلهم سمعوه، وعرفوه، ومع المشرع الأعظم - صلى الله عليه وسلم- وسمعها، وتبسم وفرح، فهل يقر- صلى الله عليه وسلم- شيئاً غير صحيح، مالكم كيف تحكمون.

-والأهم من ذلك: هؤلاء المعترضون، قساة القلوب، غلاظ الأكباد، جفاة عن الحب، وجهلة بمقدار سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ولا يعرفون قدره الشريف، ولا مكانته العظيمة، ولا يدرون قدر فضله على الأمة، وعظيم منته عليهم، وأهليهم منذ ظهور الإسلام إلي يوم الدين، ولو علموا مقداره؛ لتهيبوا من كلامهم، وقد عجز الشعراء الأوائل عن مدحه هيبة لمقامه، وإجلالاً لقدره، وعجزوا أن يأتوا ببعض البعض من أوصافه، حتى قال أبو نواس -غفر الله له ورحمه-، وقد سئل لماذا لم يمدح الإمام علياً الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، وفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فقال:

قيلَ لي أنتَ أحسنُ الناسِ طرّاً ... سَبكَ لفظٍ وصوغَ معنىً نزيهِ
كَم عقودٍ قلّدتها لجيودٍ ... في فنونٍ منَ الكلامِ النبيهِ
لَكَ من جيّدِ القريضِ مديحٌ ... لَيسَ يَعرى عَن مفخر مكتسيهِ
تارةً يسحرُ العقولَ وطوراً ... يُثمرُ الدرّ في يدي مجتنيهِ
فَعلامَ تَركتَ مدحِ اِبن موسى ... وَهو أَحرى بأعظمِ التنويهِ
أَو لَم تَستبن كمالَ علاهُ ... وَالخصالَ الّتي تجمّعن فيهِ
قُلت لا أَستطيعُ مدحَ إمامٍ ... طهّرَ الوحيُ بيتهُ وذويهِ
ما عَسى أن أقولَ في مدحِ مَن ... قَد كانَ جبريلُ خادماً لأبيهِ

بل ذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله–، أن حساناً أول ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ورجع إلى قومه، سألوه أن يهجوه لهم فقال:

لما نظرتُ إلى أنواره سطعت ... وضعتُ من خيفتي كفّي على بصري
خوفاً على بصري من حُسْنِ صورَتِه ... فلستُ أنظره إلا على قدري
لَنْوار من نوره في نوره غرقتْ ... والوجه منه طلوعُ الشمسِ والقمر
روحٌ من النور في جسمٍ من القمرِ ... كحلةٍ نسجتْ بالأنجمِ الزهُرِ

لنوار يعني: الأنوار. فانظر إلى جزالة اللفظ، وعذوبة الأسلوب، ورقة المعاني، وهي أمور لا يعدو البوصيري –رحمه الله– أن يكون مقتبساً منها، وآخذاً عنها، ولم يبتدع في مدح سيدنا صلى الله عليه وسلم إلا ما كان من موهبة عالية، ورزقاً من الله من الفتوحات النورانية، والفيوضات الإلهية، غذتها المحبة الخالصة، والفطرة السوية، وأمدها الله بمدد منه، وعون؛ ليصل لهذه الدرجة من البلاغة، وقبل ذلك، وبعده القبول العظيم بين جماهير المسلمين في كل زمان، ومكان ومع لغات كثيرة.

القصيدة والشرّاح:

وهذه القصيدة الرائعة المباركة البردة، أو المسماة أيضاً بـ (البُرأة) كتبها الإمام محمد بن سعيد البوصيري المولود سنة ٦٠٨هـ والمتوفي ٦٩٥ هـ- رحمةُ الله تعالى- رحمةً واسعة ليس في هذا الوقت المعاصر، ولا في فيما سبقه فيما يعرف بالعصر الحديث، بل ألفها في أوائل القرن السابع الهجري، أي أن لها ما يُقارب الثمانمائة سنة هجرية، وقد تواتر على شرحها شرحاً وافياً كثير من العلماء، ولهم قدم راسخة في العربية، وعلومها، ونحوها، وصرفها، ودلالتها، وبلاغتها، وبيانها، ومعانيها، وبديعها، وهم أعلم الناس بالتوحيد، وأركانه، ونواقضه، والشريعة وعلمها، والفقه وأصوله، ما يرضي الله وما لا يرضيه من الأعمال، والأقوال فكيف يشرحونها، ويمتدحونها، ويثنون عليها ثناءً عاطراً، فهل جهلوا معانيها، وما فيها من شركيات مما يدعيه الحمقى، والمغفلون، والجهلة في هذا العصر، وهل أهل هذا العصر - ممن اعترض عليها- أعلم منهم باللغة والشريعة، هذا كذب، وخطأ بل وخطيئة ،أم أنهم عرفوا ما فيها - مما يدعيه الحمقى- من شرك وشرحوها، وأقروها، ونشروها بين الناس وصاروا بذلك - وحاشاهم- دعاة للشرك، وأبواقاً للكفر، وهذه طامة وفرية، وبهتان عظيم، ممن يدعيه ويزعمه، وإذا علمت بعض أسماء هؤلاء الشُرَّاح لهذه القصيدة المباركة؛ لأصابك الذهول، وعلمت مصيبة هؤلاء، وجهلهم، وارتكاسهم، وانتكاسهم ومدى ما هم فيه من ضلال، نسأل الله لهم الهداية، أو يكفي المسلمين شرهم بما شاء، وكيف شاء .

فأولهم: المُحدث الكبير الإمام: شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣هـ، وهو صاحب كتاب (إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري) وكتاب (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية) وسمى شرحهُ على البردة (الأنوار المُضية في شرح الكواكب الدُرية).

ومنهم: الإمام الحافظ المحدث الفقيه: نور الدين مُلا علي قاري الحنفي صاحب كتاب: (الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة) وكتاب (المِنح الفكرية على متن الجزرية) وكتاب:(المورد الروي في المولد النبوي)، وكتاب (شرح الفقه الأكبر) المتوفى سنة ١٠١٤ومنهم: جلال الدين المحلي المتوفى سنة ٨٦٤ هـ وهو صاحب كتاب (تفسير الجلالين) و كتاب (شرح الورقات في أصول الفقه)وهو شيخ الحافظ جلال الدين السيوطي –رحمهُ الله– الذي أكمل تفسير الجلالين بعد وفاته.

ومنهم: العلامة الكبير: الزركشي محمد ابن بهادر صاحب كتاب (النكت على مقدمة ابن الصلاح) وكتاب (البرهان في علوم القرآن) المتوفى سنة ٧٩٤ هـ .

ومنهم: الإمام اللغوي: خالد الأزهري مؤلف كتاب (التصريح على التوضيح) وكتاب (تهذيب اللغة) وكتاب (موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب) المتوفى سنة ٩٠٥هـ .

ومنهم: الشيخ: الباجوري صاحب كتاب (شرح جوهرة التوحيد) المتوفى سنة ١٢٧٦هـ.

ومنهم: الإمام النحوي: ابن هشام الحنبلي المتوفى سنة٧٦١هـ ، فقد شرح قصيدة البردة شرحاً لغوياً سماهُ بـ: (الكواكب الدرية).

ومنهم: محمد بن أحمد ابن مرزوق التلمساني صاحب كتاب (مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول) المتوفى سنة ٨٤٢ هـ.

ومنهم: ابن العماد صاحب كتاب (شذرات الذهب) المتوفى سنة ٨٠٨ هـ

ومنهم: شيخ الإسلام القاضي زكريا بن محمد الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦هـ وسماهُ (الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة).

ومنهم: محمد علي بن علاَّن الصدّيقي المكي صاحب كتاب (الذخر والعدة في شرح البردة).

ومنهم: ابن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .

ومنهم: علاء الدين البسطامي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ.

ومنهم: محمد بن عبد الله بن مرزوق المالكي المغربي المتوفى سنة ٧٨١ هـ

ومنهم: الشيخ القاضي بحر بن رئيس الهاروني المالكي.

ومنهم: علي القصاني المتوفى سنة ٨٩١ هـ .

ومنهم: أحمد بن حجر الهيتمي وسماهُ (العمدة في شرح البرد).

ومنهم: ومحمد بن محمد الغزي، ومحمد شيخ زادة، والقاضي بحر الهاروني، ومحمد بن يعقوب الفناري، وعلي اليزدي ، وحسين الخوارزمي، ومحمد بن أحمد المحلي الشافعي، وخضر العطوفي، وطاهر ابن حسن المعروف بابن حبيب الحلبي ، وأحمد بن مصطفى، وجلال الدين الخجندي، وأبو شامة المقدسي، وأحمد الأزدي القصار، ويحيى بن منصور الحسني، وأحمد الشيرازي، ومحمد الكردي السهراني، ، والشهاب القسطلاني، وابن حجر المكي، وأبو الفضل المالكي، وعثمان العرياني، ومحمد الجوجري...

وغيرهم العشرات من أئمة المشرق والمغرب، مما يحتاج إلى إفراد أسفار لكتابتهم، وكتابة ما صنعوه، ولا يتسع المجال لحصرهم، وكم من عالمٍ في الأمة لهم ثقلهم، ووزنهم مروا بهذه الحقبة الزمنية، ومرت على آذانهم هذه القصيدة العصماء، وهم ما بين مُفسرٍ، وفقيهٍ، ومحدثٍ، ومؤرخ، وحافظٍ، وخطيب، وغيرهم من علماء العلوم الشرعية، وما ذكروها إلا بخير وما تحدثوا عنها إلا بثناءٍ طيب، وذكرٍ حسن، وأزيدك في القصيدة بيتاً، فقد ترجمت، وشرحت للغات التركية، والفارسية، والألمانية، والإنجليزية، والتترية، والفرنسية، واللاتينية... إلخ [١]،مما يفتح المجال لعلماء هذه الأمم لقراءتها، والحديث عنها،

---

(١) ذكر ذلك د. محمد درنيقة في : معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص٣٥٦

والاعتراض لو هناك وجه- ولم يحدث-، وهذه الترجمات مما تدل على عظمة الإقبال عليها من كافة أمم العالم، ويكفي أن نقرأ ما قاله الإمام المحقق العالم الشهير: ابن حجر الهيتمي في المنح المكية بشرح قصيدة الإمام الحافظ التقي الورع البوصيري :

وإن من أبلغ ما مدح به النبي صلى الله عليه وسلم من النظم الرائق البديع، وأحسن ما كشف عن كثير من شمائله من الوزن الفائق المنيع، وأجمع ما حوته قصيدة من مآثره وخصائصه، ومعجزاته، وأفصح ما أشارت إليه منظومة من بدائع كمالاته، ما صاغه صوغ البسر الأحمر، ونظمه نظم الدر والجوهر، الشيخ الإمام، العارف الكامل الهمام، المتفنن المحقق، البليغ الأديب المدقق، إمام الشعراء، وأشعر العلماء، وبليغ الفصحاء، وأفصح الحكماء، الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي.. البوصيري..." أخذ عنه الإمام أبو حيان، والإمام اليعمري أبو الفتح ابن سيد الناس، ومحقق عصره العز ابن جماعة...وغيرهم، وتوفي سنة ست أو سبع وتعين وستمائة..." "وكان من عجائب الدهر في النظم والنثر، ولو لم يكن له إلا قصيدته المشهورة بالبردة ... لكفاه بذلك شرفاً وتقدماً، كيف وقد ازدادت شهرتها إلى أن صار الناس يتدارسونها في البيوت، والمساجد كالقرآن... فاق أهل زمانه، ورزقه الله – تعالى- من الشهرة، والحظ ما لم يصل إليه أحد من أقرانه..."

وصف همزيته بقوله:" العذبة الألفاظ، الجزلة المباني، العجيبة الأوضاع، البديعة المعاني، العديمة النظير، البديعة التحرير، إذ لم ينسج أحد على منوالها، ولا وصل إلى عُلا حسنها، وكمالها، حتى إن الإمام: البرهان القيراطي، المولود سنة ست وعشرين وسبعمائة والمتوفى سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، فإنه مع جلالته وتضلعه من العلوم النقلية العقلية، وتقدمه على أهل عصره في العلوم العربية والأدبية، لا سيما علم البلاغة، ونقد الشعر، وإتقان صنعته،

وتمييز حلوه من مره، ونهايته مع بدايته؛ أراد أن يحاكيها، ففاته الشنب، وانقطعت فيه الحيل، عن أن يبلغ من معارضتها أدنى أرب" ،"وذلك؛ لطلاوة نظمها، وحلاوة رسمها، وبلاغة جمعها، وبداعة صنعها، وامتلاء الخافقين بأنوار جمالها، وإدحاض دعاوى أهل الكتابين ببراهين جلالها، فهي دون نظائرها الآخذة بأزمة العقول، والجامعة بين المعقول والمنقول، والحاوية لأكثر المعجزات، والحاكية للشمائل الكريمة على سنن قطع أعناق أفكار الشعراء، عن أن تشرئب إلى محاكاة تلك المحكيات، والسالمة من عيوب الشعر، من حيث فن العروض، كإدخال عروض على آخر، وضرب على آخر، من حيث فن القوافي، كالإيطاء وهو تكرير لفظ القافية بمعناه قبل سبعة أبيات، وقيل عشرة، وكالإكفاء وهو اختلاف حرف الروي، والإقواء وهو اختلاف حركته...إلخ" (١)

جهل وتهور:

ويكفي الرد على المعترضين أن نذكرهم بجهلهم باللغة، ونقول لهم إجمالاً: كل كلام البشر يمكن أن يُنتقد، فلا يخلو كلام مخلوق من النقد، والذين ينتقدونه أيضاً لو قالوا شعراً؛ لوجدنا فيه ما ينتقد جميعاً، وذلك مثل بعض الأبيات التي يكون فيها تعميم، أو إعادة ضمير محتمل . وابن تيمية ذكر في المجلد الأول من كتاب (الاستغاثة) بأنه لا يكاد يخلو شعر من شعر المداحين في النبي –صلى الله عليه وسلم–، من تجاوزات، ولم يكفرهم أو يشتمهم، بل سمى الصرصري وشعره فيه من الاستغاثات أكثر من البوصيري بـ"حسان السنة"، وإن كنت أخالف الشيخ ابن تيمية في قوله تجاوزات فما في أعراف المحبين المتبتلين في أكرم، وأطهر، وأعظم، وأجمل محبوب من تجاوزات، وما أقوالهم، وما فيها إلا من فرط الحب، وعظيم العشق، والهيام للجناب النبوي، لكن الأهم لمن يمشون وراء علماء يجلونهم ألا يتأدبون بهذا الكلام، وأيضاً لا إشكال –عندنا– لو قلنا أخطأ البوصيري أو أخطأ غيره، الأمر نقبله لأنه ليس

(١)ينظر: المنح المكية بشرح الهمزية البوصيرية: ج١ ص١٠٥

معصوماً، وكل بني آدم خطاؤون وخير الخطائين التوابون، لو كان أخطأ، ولكن لفهمنا للغة، ومعرفتنا بعلومها نقول: إن الرجل لم يخطئ، بل وأصاب في مدحه، وبلغ ما يبلغه أكبر الشعراء من صفات الممدوح، وبيان فضله.

وكان يكفي البوصيري فضلاً؛ أن تفرغ لمدح سيد الثقلين صلى الله عليه وسلم، فكان حرياً أن يشفع ذلك فيه للمعترضين على كلامه، ويتأدبوا في الحديث عنه، لكنهم جفاة قساة لم يعرفوا حقيقة قدر نبينا، وما يقتضيه هذا القدر من محبة، فالرسول –صلى الله عليه وسلم– له في رقابنا دين، أقله أنه يملكها؛ لأنه الذي نجانا الله به من النار، وقد قال الإمام الشافعي– رحمه الله تعالى– في مطلع (الرسالة):"وصلى الله –عز وجل– على نبينا محمد كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، وصلى الله عليه في الأولين والآخرين، أفضل وأزكى ما صلى أحد من خلقه... فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت، نلنا بها حظاً في دين ودنيا، ودفع عنا بها مكروه فيهما وفي أحد منهما إلا ومحمد – صلى الله عليه وسلم– سببها، القائد إلى خيرها، والهادي إلى أرشدها" (١)

فضلاً عن جهل المعترضين باللغة، وفنونها وصحيح الشرع الشريف.

وإلا فقصارى ما في الشعر رقائق، ومبالغات لا حصر لها جاءت في كلام الشعراء قديماً وحديثاً، من مدح سعدى وسلمى، والدن والدنان، ومن مدح الأنبياء، والرسل –عليهم السلام–، فلا يجب أن نتعامل معها كما نتعامل مع النصوص الفقهية، والبحوث الأصولية؛ لأنه تعارف أنها ألفاظ لا تقتضي ظواهرها، والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً، كما لا يخفى على من يعلم علم الأصول، وكأن الإمام البوصيري –رحمه الله تعالى– يرى أن بعض الجهلة القساة الجفاة سيعترضون عليه، وسيستدلون بدليل لا يفهمونه، وهو قوله – صلى الله عليه وسلم– :(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله) ولو عقلوا وأحسنوا القراءة؛ لوجدوا الرد في

(١) للاستزادة ينظر: مسالك الحنفا، للقسطلاني، ص: ٥٣٥

الحديث، فلم يقل صلى الله عليه وسلم (لا تطروني) وفقط لكان اعتراضهم صحيحاً، لكنه قيد الإطراء المنهي عنه (كما أطرت النصارى ابن مريم) فقد قالوا إنه إله، وابن إله، وهذا ما لم يقل به مسلم عاقل في أي زمان، ولا مكان، وقد ذكر ذلك الإمام البوصيري:

دعْ ما ادعته النصارى في نبيِّهم ... واحكمْ بما شئتَ مدحاً فيه واحتكمِ
وانسبْ إلى ذاته ما شئتَ من شرفٍ ... وانسبْ إلى قدره ما شئتَ من عِظَمِ

فالبوصيري يعرف دينه، ويحفظ عقيدته، ويعرف الفرق بين مدح المسلم الموحد للرسول صلى الله عليه وسلم ومدح النصراني المعتقد بألوهية عيسى له؛ فقد نسب النصارى عيسى –عليه السلام– للألوهية، فنهانا الشاعر عن ذلك، قائلاً بأن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قد حاز الكمال، وحاز منتهى الجمال الخَلقي والخُلقي، فكل وصف يوصف به خلا ما هو من صفات الألوهية، لا يعدو الحق وليس فيه شيء وهو من باب المحبة، والمدح، والتعظيم، ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم حري بذلك. وهذا ما جعل الناس تحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دون أن تشعر فكل صفة من صفات الكمال قد حازها النبي صلى الله عليه وسلم، حتى صار كل من أحب صفة من صفات الكمال، والجمال إنما أحب النبي –صلى الله عليه وسلم وهو لا يشعر.

الاعتراضات والردود:

وسأذكر هنا بعض اعتراضات الجهلة على القصيدة والرد عليها، دون أن أذكر أسماءهم وهي عندي؛ ليكون الموضوع علمياً، وليس شخصياً؛ للرد على فلان أو علان يقول أحدهم :

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألوذ به ... سواك عند حدوثِ الحادثِ العَمَمِ
ولن يضيقَ رسولَ اللهِ جاهك بي ... إذا الكريمُ تجلَّى باسمِ منتقمِ
فإنَّ من جودِكَ الدنيا وضرتها ... ومن علومِك علمُ اللوحِ والقلمِ

فهذا الشاعر خلع على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أوصاف الربوبية والألوهية ما لا يليق وصف أحد به إلا الله وحده ، فجعل الرسول وحده ملاذه، ومعاذه عند حلول الخطوب، ونزول الشدائد، ثم نسب إلى الرسول الشفاعة مطلقاً، كما يعتقده المشركون في الشفاعة الشركية، التي تكون بدون إذن، ولا رضى من المشفوع عنده وإنما تكون بجاه الشافع، ومكانته فقط.

وقبل أن نفسر الأبيات للقارئ، نستطيع أن نهاجم هؤلاء الذين يتهمون البوصيري في العقيدة بأن نتهمهم –وبحق– في عقيدتهم، ونتساءل:هل علم الله تعالى محدود ؟ هل جودهُ وكرمهُ محدودان ؟ هل كُل ما في اللوح المحفوظ هو كُل ما في علم الله تعالى ؟ وإجابة هذه الأسئلة التي تتبادر إلى ذهن عوام المسلمين فضلاً عن علمائهم، أن الله تعالى لا نهاية لكمالهِ، ولا حدود لصفاتهِ؛ لأنهُ ليس كمثلهِ شيء وهو السميع البصير، فكل من اعتقد المحدودية في ذات الله –تعالى– أو في صفاتهِ، أو حَصَر علم الله في شيء مخلوق كاللوح والقلم، فقد أخطأ الصراط المستقيم، واتبع السُبل؛ لأنهُ هدم أعظم ركن من أركان الإسلام، وهو التوحيد الذي يقتضي تقديس الله –تعالى– عن مشابهة المخلوقات في ذاته، وصفاته، وأفعالهِ، وهذا خطر على العقيدة، ولنا أن نقف مُندهشين أمام هذا الكلام، والاعتقاد الخاطئ، فَمنْ وصف صفات الله –عز وجل– بالتناهي والحد، فقد أساء إساءة كبيرة، وخطيرة تمسُ العقيدة الإسلامية، وتأملوا هذا القول الخطير للمعترض –هداهُ الله– إذ يقول:(فإذا كانت الدنيا والآخرة من جود الرسول –عليه الصلاة والسلام– وليس كل جوده، فما الذي بقي لله –عز وجل– ؟ ما بقي له شيء من الممكن لا في الدنيا، ولا في الآخرة).

ولعلنا ندرك خطورة هذا الفهم للصفات الإلهية، وخطورةُ هذا الكلام – لمن لم يدرك حتى الآن مكمن الخطورة فيه – تكمن في تحديد دائرة الجود، والكرم الإلهي في نطاق الخلق، وهذا يدل على محدودية صفة الجود، والحد من تعلق هذه الصفة في الجائزات يُفضي إلى تصور الحصر في الذات الإلهية، وهذا

يتنافى مع تنزيه الخالق –سبحانهُ وتعالى–، ويتنافى مع ما يجب اعتقاده من كمال الله –عز وجل–، الذي لا يحدُ كرمهُ، ولا يُحصر جودهُ، ولا يعجزهُ إيجاد مسالك لكرمهِ وجودهِ. ولا أدري؟ كيف يفهم المعترض قول الله –تعالى– كما ورد في الحديث القدسي الجليل، الذي خَرَّجه مسلم، والترمذي وابن ماجه عن أبي ذر الغفاري –رضي الله عنه– وفيه:" لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا على صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كُل واحدٍ مسألتهُ ما نقص ذلك من مُلكي إلا كما ينقُص المخيط إذا أدخل البحر" ونقص المخيط من البحر هو من باب التمثيل؛ للتقريب للأذهان، وإلا فلا نسبة هُنا وإن دقت –تعالى –الله عن ذلك علواً كبيراً، فَتَوَهُّمُ أن الجود الإلهي مُنحصر في الدنيا والآخرة فقط، مُعارض لأمثال هذا النص المتقدم، الذي يفيد: أن جود الله لا يتناهى، ولا يُحد، ولا يُعد، وإذا كانت الدنيا والآخرة – وهما مما يُتصور من سؤال الإنس والجن – لا تُنقصان ملك الله –عز وجل– إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، فكيف يصحُ لمسلمٍ أن يفهم أن الجود والكرم الإلهي محدودٌ بهما ؟ وأين باقي هذا البحر الذي لم يذهب منهُ إلا ما أنقصهُ المخيط، سبحان الله وتبارك وتقدس أن يُحد جودهُ وكرمهُ ، أو أن يُماثلهُ شيء من خلقهِ.

والخطأ الأخر في تصوّر العلم الإلهي، و تحديدهُ في قول المعترض في معنى البيت الثاني:(ومن علومك علم اللوح والقلمِ .. ولا أدري ماذا يبقى لله – تعالى– من العلم إذا خاطبنا الرسول –عليه الصلاة والسلام– بهذا الخطاب) اهـ كلام المعترض.

وهذا الكلام الخطير جداً يمس جانب العقيدة مساً واضحاً بيناً؛ لأن الله – تعالى– لا يُحدُ علمُهُ، ولا يُحاطُ بهِ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً... فعلمهُ سبحانهُ المتعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات، لا يوصف ببداية ولا ينعت بنهاية، ولا تحدهُ غاية، سبحان الله عما يصفون ويتوهمون.

ومنشأ هذا الخطأ هو تصوّره أن علم الله –تعالى– محدود باللوحِ والقلم، أو الدنيا والآخرة !، وكيف يتصور عاقل فطن أن اللوح والقلم، وهما مخلوقان من خلق الله يستوعبان كل علم الله –تعالى–، فيحصر بهذا التصور العلم والقدرة الإلهيين فيهما.

فسبحان الله، لعلكم نسيتم قصة الخضر الثابتة في الصحيح:... فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما ، فعُرِف الخضرُ فحملوهما بغير نول، فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر... الحديث. قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى–: " وقد وقع في رواية ابن جريج بلفظ أحسن سياقاً وهو:" ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر".

وهذا من باب إيضاح المعنى بالمثال، وإلا فعلمُ الله لا يُحد، كما يُحد البحر مهما عظُم واتسع . يقول ربنا –عز وجل–: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾(١) وهنا يتبادر إلى عقل المسلم السؤال التالي:

إن كان علم الله كُلهُ محصورا باللوح والقلم –كما هي دعوى المعترض– فأين كان علم الله قبل خلقهما ؟ وهل الله –سبحانهُ وتعالى– لم يكن يعلم شيء قبل خلقهما ؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . فهو سبحانهُ وتعالى لا يُوصف بأين، ولا يُنعت بكيف. ثم ألم يتفطن إلى أن حصر العلم في المتناهي من صفات علم المخلوقين، وهذا تشبيه للباري بخلقهِ ؟ وهو يعلم خطورة التشبيه في العقيدة الإسلامية وموقف علماء الإسلام من المشبهة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾النساء ٣٢ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن

(١) الكهف آية(١٠٩)

ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء ٣٦، واللوح والقلم شيئان من الأشياء الكثيرة التي خلقها الله – تعالى–... وكأنما غفلتم عن قولهِ –عليهِ الصلاة والسلام– (إن أول ما خلق الله القلم فقال لهُ: أكتب فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)، ومن الواضح أن ما بعد يوم القيامة من عوالم لم يُسجلها القلم كما يُفهم من هذا الحديث، فما المانع أن يُطلع الله من يشاء من خلقهِ على هذهِ العوالم التي لم يُسجلها القلم، ولم تُحفظ في اللوح المحفوظ، ولا سيما حبيبهُ ورسولهُ وخاتم الأنبياء – صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم– وخاصة أن نصوصاً كثيرة جاءت؛ لتكشف عن ذلك وسيأتي ذكرها. والمشكلة هُنا أنهم يخلطون بين الأسباب ومسبباتها، ولا يفرقون بين السبب الظاهر والسبب الخفي، ويغفلون عن أن الله – تعالى– ربط الأسباب بالمسببات.

والعجب أنهم يتناقضون بفتوى أخرى يُقرونها وهي جواز قول(الله ورسولهُ أعلم) لأن علم الرسول من علم الله، فالله – تعالى– هو الذي يُعلِّمه ما لا يدركهُ البشر، ولهذا أتى بالواو.

وأيضا يرد على المعترض أيضاً في شرح الأبيات فيقال: العجب أن كثيراً ممن ينتقد البردة لا يكون ممن قرأها، أو متحاملاً من غير علم ولا وعي، وقد اتفق أهل التخصص، والفهم أنه يقبل في الشعر من المبالغة وأشباهها ما لا يقبل في غيره، فقوله هذا عن تلك الأبيات، يدل على أنه لم يفهم ما قرأ، أو لم يستوعبه، أو أنه متحامل من غير بينة، فصاحب البردة – رحمه الله – قالها في معرض الحديث عن الشفاعة يوم القيامة، ولا شك أن أهل الموقف يلجؤون إلى الأنبياء، فيردهم كل نبي إلى أن يصلوا للنبي – صلى الله عليه وسلم– وعلى آله، والحديث بذلك موجود في الكتب الستة، وهو من عقائد الإسلام. فهو إما لم يفهم، أو أنه مخالف لعقيدة أهل السنة والجماعة من أن النبي – صلى الله عليه وسلم– هو من سيلجأ إليه أهل المحشر لطلب الدعاء إلى الله– تعالى– من أجل تفريج ما هم فيه، وليس سواه من الخلق، بل ولا الخالق، من

سيلجأون إليه.. ثم تأمل قوله : يا أكرم الخلق ... يعني وصفه بأنه مخلوق وليس رباً من دون الله . والحادث العمم هو يوم القيامة، فكلام البوصيري هناك عين الصواب، وقد بين ذلك بقول: "ولن يضيق رسول الله جاهك بي، إذا الكريم تجلى باسم منتقم"...يعني يوم القيامة

قال الشيخ العلامة اللغوي النحوي خالد الأزهري صاحب كتاب: (تهذيب اللغة)، وهو من فطاحلة اللغة العربية شارحاً هذا البيت حيثُ يقول: يا أكرم كُل مخلوق مالي غيرك ألتجئ إليهِ يوم القيامة من هولهِ العميم، والخلق متطلعون إلى جاهك الرفيع ، وجنابك المنيع، ولن يضيق بي جاهُك يا رسول الله إذا اشتد الأمر وعيل الصبر، وانتقم الله –تعالى– ممن عصاه... والناظم هنا يتحدث عن موقف المقام المحمود الذي يقفه رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– عندما تدنو الشمس من الخلائق، ويطول الأمر بالناس وهم في خوف، وضجر، وقلق شديد، حتى يتمنى الكفار أن يُذهب بهم ولو إلى النار؛ فيلجأون إلى الأنبياء بدءاً من آدم، ثم نوح، فإبراهيم، فموسى فعيسى –عليهم الصلاة والسلام–، وكلهم يعتذر، ويأبى الشفاعة ، ولا تهمهُ إلا نفسهُ في ذلك الموقف ثم يلجأون إلى سيدنا محمد – صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم–، فيقول: أنا لها. والشاعر يذكُر رسول الله بهذه الخُصوصية الجليلة العظيمة، التي دلت عليها الأحاديث الصحيحة، وفي الحديث:

(فيلهمني الله محامد لا أقدر عليها الآن فأحمده بتلك المحامد، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه واشفع تشفع) الحديث. والشاعر البوصيري – رحمه الله– يذكر الشفاعة الكبرى، التي دلت عليها الأحاديث الصحيحة، وهي خاصة بسيدنا رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم–.

وهناك أنواع أخرى من الشفاعات الخاصة لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم غير هذه الشفاعة لا مجال هنا للحديث عنها؛ فهل في هذا ما يمس العقيدة في شيء.

وقال المعترض: ثم نراه يجعل الدنيا والآخرة من جوده، وأن علم اللوح والقلم من بعض علومه، وهذا مع ما فيه من الشرك كفر بالله -عز وجل- . لأن كل ما ذكره من أوصاف الربوبية، والألوهية لا يجوز بأي حال من الأحوال، وصف أي مخلوق بها، وإنما أي من صفات الخالق وحده قال -تعالى-: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، وقال - تعالى-: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾الآية، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾.

ويرد عليه: هذا فيه من التحامل علي البوصيري وعدم الفهم لكلامه ما لا يتصوره عاقل؛ لأن كلام الناظم في الشطر الأول يقتضي معاني منها:

إما أن من جوده خير الدنيا، وخير الآخرة، وحذف لفظة "خير" للمجاز، فلا ضير، ولا خلاف في ذلك، إذ باتباع شريعته صلى الله عليه وسلم يحصل خير الدنيا والآخرة، كما تقرر في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الكثيرة... حتى قال الإمام الشافعي - رحمه الله- في مقدمة "الرسالة": "فلا نعمة تصيبنا في الدنيا والآخرة حساً، ومعنى إلا وهو الواسطة فيها صلى الله عليه وسلم"... .

وأي إشكال في هذا الفهم، بل إن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- رفض الدنيا بما فيها، زاهداً فيها، فضلاً عن تملكها، ثم الجود بها، والأحاديث في هذا متواترة. أخرج أبو يعلى بإسناد حسَّنه الهيثمي عن أمنا عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- :"يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب".

وإما أنه يقصد أن الدنيا والآخرة من جوده -صلى الله عليه وسلم-، بمعنى استمرارهما وبقاؤهما، ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم "رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" بنص القرآن، والعالمين جمع عالم، والدنيا والآخرة عالمان من العالمين، ولولا الرحمة لما قاما، فلا يشك مؤمن في ذلك، بنص الكتاب والسنة والإجماع.

وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

يقول الشيخ خالد الأزهري: "وإنّ خيري الدنيا والآخرة من جودك، وعلمي اللوح والقلم من علمك، وأنت الحقيق بذلك، والمعول في الشفاعة عليك. ويقول الشيخ: إبراهيم الباجوري صاحب (الجوهرة)، وهو أحد شراح البردة، وهو ممن ولي مشيخة الأزهر في القرن الثالث عشر من الهجرة ما نصهُ: والمراد من الدنيا ما قابل الأخرى، ولذلك جعلها الناظم ضرتها، وفي كلامهِ تقدير مُضاف أي خيري الدنيا هدايتهُ –صلى الله عليه وآله وسلم– للناس، ومن خير الآخرة شفاعتهُ –صلى الله عليه وآله وسلم– فيهم.

وأما قوله : ومن علومك علم اللوح والقلم ... فهو ربما يقصد القرآن الكريم، لأن فيه نبأ كل شيء كما في الكتاب والسنة، و"شيء" عام، ولا شك أن الله –تعالى– ما أرسله بالقرآن حتى علمه صلى الله عليه وسلم معانيه، ومستنبطاته، علومه...إلخ. فكلام البوصيري هنا لا غبار عليه.. وراجع علوم الكتاب، وما ورد فيها من أقوال السلف والخلف، وما وردت فيها من الأحاديث، والإعجاز، فكل ذلك من علوم النبي صلى الله عليه وسلم ،أما أن يظن ظان – كما قاله بعض المنتقدين – بأن علم الله –تعالى– مقصور على اللوح والقلم؛ فيستحق أن يتلى عليه(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ).

وأيضاً بخصوص علم اللوح والقلم: جاء في الصحيحين واللفظ لمسلم عن أنس – رضي الله عنه– أن الناس سألوا النبي – صلى الله عليه وآله وسلم– حتى أحفوه بالمسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: "سلوني، لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم، فلما سمع القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين يديه أمر قد حضر، قال أنس: فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً فإذا كل رجل لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل من المسجد، كان يلاحى فيُدعى لغير أبيه، فقال: يا نبي الله من أبي؟ قال: أبوك حذافة.

ثم أنشأ عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائذاً بالله من سوء الفتن ثم قال –صلى الله عليه وآله وسلم–: "لم أر كاليوم قط في الخير والشر، إني صورت لي الجنة والنار فرأيتهما دون هذا الحائط."

روى البخاري عن عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– قال: قام فينا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه. وفي حديث اختصام الملأ الأعلى أخرج الإمام أحمد في مسنده والدارمي، والترمذي، والطبراني – ومما جاء فيه – فعلمت ما في السموات والأرض وتلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام ٧٥، وفي رواية : فتجلى لي كل شيء وعرفت، وفي رواية الطبراني: فعلمني كل شيء ... إلخ

ويتضح هنا أن الله –سبحانه وتعالى– أفاض على نبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– من العلوم، والمعارف مالا يعلمه إلا الله –تعالى– القائل له:" وأنزل الله عليك الكتب والحكمة، وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً " النساء١١٣. و(ما) في الآية تدل على العموم والشمول، أي لتعم جميع العلوم التي علمها الله –تعالى– لرسله وأنبيائه –صلوات الله وسلامه عليهم–، ولتشمل غيرها من العلوم التي أفاضها الله –سبحانه وتعالى– عليه صلى الله عليه وآله وسلم فما هو وجه الإشكال إن قال قائل:" إن الله علّمه علم اللوح والقلم. ألست ترى النص النبوي الشريف يقول لك؟: "فعلمني كل شيء، أو فتجلى لي كل شيء وعرفت.." الخ. أليس اللوح والقلم شيئين من هذه الأشياء، ثم أليس معرفة الجنة والنار والإخبار عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة ... الخ مما يزيد عما في اللوح والقلم، الذي لم يكتب إلا ما سيكون إلى يوم القيامة، أما ما بعد يوم القيامة فإن العلم به علم بما ليس في اللوح والقلم. وهب أنه كتب في

اللوح ما سيأتي بعد يوم القيامة، ألا يدخل علم ما يكتب في قوله: فتجلى لي كل شيء.

وفي شرح هذه البيت من البردة يقول الإمام العلامة: جلال الدين المحلي، في شرحه على البردة (١):"ومن علومك علم اللوح والقلم يقال: إن الله تعالى أطلعه على ما كتب القلم في اللوح المحفوظ، وعلى علوم الأولين والآخرين، وهذا من جاهه عند الله تبارك وتعالى".

ويقول شيخ الشافعية في زمنه العلامة ابن حجر الهيتمي (٢) :"ووجه كون علم اللوح والقلم من بعض علومه –صلى الله عليه وآله وسلم– أن الله تعالى أطلعه ليلة الإسراء على جميع ما في اللوح المحفوظ، وزاده علوماً أخر؛ كالأسرار المتعلقة بذاته سبحانه وتعالى وصفاته".

وهناك منحى أخر جميل في شرح هذا الشطر من البيت قالهُ محمد بن علاّن في شرح البردة حيثُ قال: والخمسُ التي استأثر الله تعالى بعلمها ليست بمكتوبة في اللوح المحفوظ إذ لو كان ما كُتب فيهِ؛ لاطلع عليها بعضُ الملائكة الذين هُم من شأنهم الاطلاع عليها على ما فيه. وقد جاء في وصفهن (لا يعلمهن إلا الله) فعن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:" أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير" وحينئذٍ فلا يُشكل على قول الناظم ومن علومك علم اللوح.

ويمكن الإشارة هنا إلى معنى أخر في قوله – رحمه الله–: فإن من جودك الدنيا وضرتها... إلى أن العرب استعملوا المجاز، وهو أسلوب من أساليب العربية المتفق عليه، ومن نفاهُ فقد نفى عن العربية بعضاً من الفصاحة. وفي

---

(١) مخطوط ق: ٢٣ أ، ب

(٢) العمدة في شرح البردة" –ص٦٦٩، ط: دار الفقيه بالإمارات

كلام الشاعر البوصيري –رحمه الله تعالى– في هذا البيت نجد استعمالهُ لعلاقة السببية في المجاز المرسل، فكأنه أراد: إن من جودك هداية الناس في الدنيا، وهذه الهداية موصولة لرب العالمين، وهي سبب الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، ومن جودك أيضاً الشفاعة في الآخرة، وهي علاقة مجاز على القرينة السببية وفي القرآن الكريم:(وينزل لكم من السماء رزقاً). أي: ما ينزل هو الماء، الذي هو سبب الرزق المتنوع الأشكال.

ويمكن أن يكون هناك رد غير هذا لو حسنت نياتهم، وصفت طوياتهم، وسلموا من التحامل، وأرادوا الفهم، يمكن أن نحمل هذا الخطاب على محمل ثالث كما قال بعضهم الإمام البوصيري لا يخاطب به الرسول –صلى الله عليه وسلم– وإنما يخاطب به الله – سبحانه و تعالى– ولكن تداخل الضمائر يقع، وهو معروف في اللغة، وهو مثل قول الله تعالى:﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾. تسبحوه أي تسبحوا الله، وليس بمعنى تسبحوا الرسول الذي كانت الضمائر السابقة كلها عائدة إليه. وتداخل الضمائر كثير في لغة العرب، وفي القرآن كقول الله– تعالى–: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ انظر إلى هذه الضمائر كلها ضمير لمفرد، وكلها بلفظ الغائب، "سبحان الذي أسرى بعبده" هذا الضمير الأول،" ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله" هذا الضمير الثاني، "لنريه"، هذا الضمير الثالث، "من آياتنا إنه" هذا الضمير الرابع، وهذه الضمائر كل واحد منها يعود إلى مفسر غير المفسر الآخر. من كان من أهل الفهم ومعرفة اللغة لا يضيق ذرعاً بهذا النوع، ويحمله على أحسن المحامل، ومن ليس كذلك فلا يمكن أن يخلو أي كلام مما يمكن أن ينتقد، ويوجد فيه بعض العبارات التي قد تعد، أو تكون خطأ.

أما اعتراضهم الكبير حول قول البوصيري – رحمهُ الله-:

أقسمتُ بالقمر المُنشقِ إن لهُ ... من قلبهِ نسبةً مبرورة القسم

فهذا إن دل فإنما يدل على حقيقة جهلهم باللغة العربية، فيكفيهم لإيضاح هذا الاشكال جبلٌ من جبال المعرفة باللغة العربية، وهو محمد علي بن علاّن الصدّقيّ المكيّ حيثُ قال:" فإنهُ على تقدير مُضاف، أي بربَّ القمر [(١)]"، وقرينة ذلك قولهُ تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ فهو أيضاً على تقدير مُضاف أي اسأل أهل القرية، وأصحاب العير فإن القرية لا تتكلم وكذلك العير.

ومن لديهِ فهمٌ في علمٌ في اللغة العربية غير هذا فليأتنا بهِ . ناهيك عن ابن علاّن الذي شرح كتاب الأذكار للإمام النووي في سبع مُجلدات، وكتاب رياض الصالحين في أربع مجلدات . فإن قال قائل إن هذا قياس مع الفارق، فقول الله تعالى هو (إخبار) وقول البُوصيري هو(قسم) . فلا إشكال في ذلك؛ لأن المقصود في كلا الحالتين لا ظاهرهما؛ لأنهما جميعاً على تقدير مُضاف، فليس المراد في الأولى القرية والعير، وفي الثانية القمر، ثم إن القسم ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام وقبل التطرق لهذهِ الاقسام، أود أن أذكر حروف القسم وهي: الواو كقولك: والله، والباء كقولك: بالله، والتاء كقولك: تالله ،أما الأنواع الثلاثة للقسم فهي:

– قَسَمٌ مُحرم: وهو القسم الذي يُرادُ بهِ تعظيم المخلوق كتعظيم الخالق كما كان في الجاهلية .

– قَسَمٌ مُباح: وهو القسم الذي يُرادُ بهِ التأكيد كقول النبي –صلى الله عليهِ وسلم– للأعرابي:(أفلح وأبيهِ إن صدق)

– قَسَمٌ جائز: وهو الذي يُرادُ بهِ تعظيمٌ يليقُ بالبشر كالقسم بالنبي –

(١) كتابهِ الذُخر والعدة في شرح البردة ، ص: ٢٠٧

صلى الله عليهِ وسلم-.

فمن جوزّ الإقسام على الله بخلقهِ هو سلطان العلماء العز بن عبد السلام، فقد جاء في الفتاوى الموصلية ما نصهُ:" أمَّا مسألة الدعاء فقد جاء في بعض الأحاديث أنَّ رسول الله -صلى الله عليهِ وسلم- عَلّمَ بعض الناس الدعاء فقال في أولهِ: قل اللهم إني أقسمُ عليكَ بنبيك محمد نبي الرحمة.

وهكذا نقلهُ أصحاب الخصائص كالحافظ السيوطي، والقسطلاني وغيرهما مستدلين بهِ على أن الإقسام على الله -تعالى- بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأنهُ من خُصوصياته.

وهذا هو الذي قررهُ أيضاً إمام أهل السنة، والجماعة الإمام أحمد بن حنبل -رحمهُ الله- . ومن استشكل عليهِ هذا الأمر، فليستشكل على سلطان العلماء العز بن عبد السلام والسيوطي والقسطلاني والإمام أحمد الذي جوز القسم بالنبي -صلى الله عليه وسلم- كما في (منسكهِ الذي كتبهُ للمروزي)، وممن قرر بأن هذا هو القول هو المعتمد عند الإمام أحمد ،الإمام ابن قدامة المقدسي كما في: (المغني) في باب الأيمان؛ فقد أسهب في هذا القول إسهاباً كبيراً، فليراجعهُ من شاء، وكذلك ممن روى هذا الأثر عن الإمام أحمد بن مفلح في الفروع والإنصاف للمروذي، وكشف القناع لشيخ منصور البهوتي. وكتاب المُغنى كما هو معلوم هو من الكُتب المعتمدة عند الحنابلة ، باعتراف أئمة المعترضين.

وأما الاعتراض عليه في قوله -رحمهُ الله-:

وكيف تدّعو إلى الدنيا ضرورةُ مَنْ ... لولاهُ لم تُخرجِ الدنيا مِنً العدمِ

فيمكن الرد من عدة وجوه منها: العدم لغة كما في "اللسان" و"التاج": الحمق، وفقدان الشيء، وهو كناية عن الضلال، والزيغ، والكفر، ولا شك أنه لولا النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم تخرج الدنيا من الكفر، والضلال، والضياع، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيد الغر المحجلين، والذي قال فيه -

تعالى-: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾، وقد كان العالم في كفر، وجهل عميق حتى بعث الله -تعالى- نبينا محمداً- صلى الله عليه وسلم-، فنسخ به الأديان، ولم يقبل -تعالى- إيمان أحد إلا بالإيمان به- صلى الله عليه وسلم-، فأخرجها الله -تعالى- به من العدم، والجهل، ألم تر الحق - تعالى- يقول في سورة الضحى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغْنَىٰ ﴾، فما بالك في بقية الناس ؟.

ومنها: ما روي عن عبدالله ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليهِ وسلم- " لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، فقال الله: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم اخلقهُ ؟ قال:يا رب إنك لما خلقتني رفعتُ رأسي فرأيتُ على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، فعلمتُ إنك لم تُضف إلى اسمك إلا أحب الخلق اليك ، فقال الله -تعالى- صدقت يا آدم إنهُ لأحب الخلق إليّ، وإذا سألتني بحقهِ غفرتُ لك ولولا محمد ما خلقتك [١]".

وقد قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ والأنام هم الخلق وأفضلهم محمد - صلى الله عليه وآله وسلم-، فمن باب أولى أنها له -صلى الله عليه وآله وسلم- وقال - تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا ﴾. ثم إن الدنيا والآخرة وجدتا من أجل رسالة الإسلام، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يمثل هذا الإسلام، بل هو الإسلام الفعلي الواقع والدليل عليه قوله- صلى الله عليه وآله وسلم- يوم بدر: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد في الأرض. ثم إن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، كما جاء في الحديث الشريف، فلا يرضى الله عز وجل أن تكون الدنيا كل ما أعطي لحبيبه

---

(١) وهذا الحديث اخرجهُ البيهقي في دلائل النبوة (٤٨٩/٥)،والحاكم في المستدرك (٦١٥/٢) وصححهُ، والطبراني في الأوسط (٦٤٩٨)، وذكرهُ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٩١٧). وقد حقق الإمام تقي الدين السبكي في كتابهِ (شفاء الأسقام) أن هذا الحديث لا ينزلُ عن درجة الحَسن.

– صلى الله عليه وآله وسلم– (١).

ولمحمد علي بن عَلاّن الصدّقيّ المالكي– رحمهُ الله– تحقيقٌ لغويٌ بليغ لهذا البيت، الذي يقول فيهِ البوصيري:

وكيف تدّعو إلى الدنيا ضرورةُ مَنْ ... لولاهُ لم تُخرجِ الدنيا مِنً العدمِ

حيثُ قال ما نصهُ :"وكيف يتصور أن تدعو إلى اتّباع الدنيا وزينتها، ضرورة من لولاهُ لم تُخرج الدنيا من العدمِ إلى الوجود بعد أن لم تكن . هذا مراده ، لكن في لفظهِ تجوّز . فإن قوله: تخرج يُهم أنها (أي الدنيا) كانت في العدم شيء . وحقيقتهُ إنّما انتفى عنها الخروج من العدم إلى الوجود . ومذهب أهل الحق أنهُ لا وجود للمعدوم حال العدم، وأنهُ ليس بشيٍ، وإذا ثبت أن وجودهُ – صلى الله عليهِ وسلم– علّة وجود الدنيا، فَالدنيا بأجمعها مُفتقرةٌ إليه؛ لافتقار وجودِ المعلول إلى وجود علته . فلو كانت ضرورتُهُ تدعو إلى الدنّيا؛ لكان وجودهُ – صلى الله عليهِ وسلم – معلولاً لوجودها وافتقر – صلى الله عليهِ وسلم – في وجودها إلى وجودها، ولأن العلة لا تفتقر في وجودها إلى وجود المعلول (٢)". اهـ

ويؤيد هذا المعنى الراقي في فهم العربية، قول البوصيري –رحمهُ الله– في البيت الذي قبلهُ حيثُ قال:

وأكّدت زهدهُ فيها ضرورتهُ ... إن الضرورة لا تعدو على العصمِ

فلقد أخرج أبو يعلى بإسناد حسَّنه الهيثمي عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–:"يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب"، بل إن رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– رفض الدنيا بما فيها زاهداً فيها فضلاً عن تملكها، ثم الجود بها، والأحاديث في هذا متوافرة.

---

(١) وانظر: مجموع فتاوى ،لابن تيمية: ج١١ص٩٧

(٢) الذخر والعدة في شرح البردة ، ص: ١٤٥

واعتراضهم عليه في قوله:

فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمداً، وهو أوفى الناس بالذمم

فقد وردت أحاديث وإن كان فيها ضعف في مثل هذا الموضوع، ذكرها ابن القيم في كتابه في الصلاة على النبي- صلى الله عليه وسلم-، وكذا ابن الرصاع في شرحه لأسماء النبي- صلى الله عليه وسلم-، ومثل ذلك يعمل به في الفضائل، ويستأنس به، ولا يعد ضلالاً ولا كفراً بحال، خاصة في القريض، والمبالغات الشعرية، والتحبب فإنه مما لا حرج من ذكره ... لأن الباب فيه واسع إجماعاً.